"الوظيفية" في عمارة القصور الصحراوية
"قصر عين ماضي بالأغواط نموذجا"

Functionalism in the architecture of the saharan ksours –ksar of Ain madhi –laghouat– Algeria; as an example

أ. فتيحة روان، معهد الآثار بجامعة الجزائر 02
Fatiha.rouane@univ-alger2.dz
أ.د عائشة حنفي، معهد الآثار بجامعة الجزائر 02
aicha_mobil@yahoo.fr
أ. مُحَمَّد خبيزي، مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة بالأغواط
mohamedkhobizi3@gmail.com

الملخص:

تعتبر القصور الصحراوية من أهم مقومات التراث الجزائري إذ تمثل نمطا معماريا محليا خالصا، وتحتوي هذه القصور على الكثير من الجوانب التي من خلالها يمكننا الوصول إلى معرفة حقائق حول الحياة بهذه المناطق، وقد كان للمعماري والمهندس الفضل الكبير في إنتاج هذا النمط من العمارة والذي اعتمد على مقاييس وظيفية أكثر منها جمالية في كل مراحل البناء.

ومن خلال قصر عين ماضي بولاية الأغواط نحاول أن نسلط الضوء على مدى التوفيق في الوصول إلى عمارة وظيفية نفعية توفر كل شروط الاستقرار والعيش خاصة في ظل الظروف المناخية القاسية.

الكلمات المفتاحية: قصر؛العمارة؛ عين ماضي؛ البناء؛ الصحراء

Abstract :

The Saharan ksour are among the most important foundations of the Algerian heritage. It therefore represents a pure local architectural style. These ksours contain many

aspects through which we can get the facts about life in these areas.

In fact, the engineer or architect had an important of this style of architecture, which depended more on functional than aesthetic standards at all stages of construction.

Through the ksar of Ainmadhi in the city of Laghouat in Algeria, we try to highlight how success is in reaching a useful architecture, which provides all the conditions of stabilization and living, especially under harsh climatic conditions.

key words: Ksar; architecture; Ainmadhi; construction; Saharan.

مقدمة:

لقد فرضت البيئة الصّحراوية مجموعة من الشّروط التي وجب على سكان المنطقة توفيرها أو اللّجوء إليها للاستقرار والسّكن والتّعمير، فالإنسان يبحث دائما عن الأمن لأهله وماله، ويبحث عن الرّاحة ويُسر العيش من خلال ما يستطيع صنعه وتوفيره من شروط للاستقرار سواء في بناء مسكنه أو في زراعته أو صناعته، وقد تكوَّنت لدى الإنسان خبرات من خلال تجاربه في التعمير والعمران على مَرّ العصور، وصار يعرف أين يختار مواضع التّوَطّن، وكيف يُطوّع بعض المواد البنائية للاستفادة منها في أعماله ومعاشه، وكَون الإنسان اجتماعي بطبعه، فإنّه يلتزم بمجموعة من القوانين والأعراف والتّقاليد التي تفرضها الجماعة من جهة، وما يُمليه أيضا الواجب الدّيني من جهة أخرى أو ما يُسمَّى بفقه العمران، لأنه يتحكّم في كثير من الجوانب الحياتية.

وللتوفيق بين هذه العوامل (المناخ الصعب – مادة البناء – الحاجة الاجتماعية – الدّين والأعراف) كان لابدّ عليه التفكير بجدّية في تنظيم معماري يكفل له التّصميم الفيزيائي (المادي) لمبانيه، ويرضي التّنظيم الاجتماعي (الرّوحي) ويضمن له الاستقرار والأمن، وذلك من خلال وضع خِطط تنظيمية للهياكل العمرانية واستعمال عناصر معمارية ومواد بنائية تطيل عمر المبنى أكبر مدّة ممكنة.

ولمعرفة هذه الجوانب في القصور الصحراوية الجزائرية، ارتأينا أن نسلّط الضوء على قصر عين ماضي بالأغواط كنموذج للقصور الصحراوية، لنطرح إشكالية عامة: إلى أيّ مدى كان توظيف التّصميم ومواد البناء والعناصر المعمارية من أجل الوصول إلى قصر يضمن الأمن والاستقرار والراحة لساكنيه وفق ما يمليه فقه العمران الإسلامي؟

1. تعريف القصر:

القصر في اللُّغة هو المنزل، وهو كلّ بيت من حَجَر قرشية، سُمّي بذلك لأنَّه تُقصر فيه الحُرُم وتُحبس[1] مصداقا لقوله تعالى: "حور مقصورات في الخيام"[2]، وهو المبنى الواسع المساحة المتقن البناء المتعدّد الحُجرات والهياكل المزخرف في كثير من المواضع.

أمَّا في المناطق الصَّحراوية فيختلف مفهوم القصر أو "لقْصَرْ" بسكون اللّام كما هو متداول في المناطق الصَّحراوية، يختلف عن المفهوم الآخر للقصور، فهو عبارة عن قرية محصّنة أو بالأحرى تكتّلات سكنية متراصّة ومتلاحمة فيما بينها تقطنها مجموعات بشرية تنتمي إلى أصول عرقية أو طبقات اجتماعية مختلفة،[3] أي أنّه تلك الكتلة العمرانية التي تسكنها مجموعة لها ما يجمعها من انتماء عُرفي أو عرقي أو ديني أو مصلحة معاشية، وتتكوّن من مجموعة من الوحدات السّكنية تستغلّها ساكنتها للعيش فيها، ويحيط بها – غالبا – سور دفاعي يحميها من الهجمات الخارجية، وبها مجموعة من المرافق العامَّة الضَّرورية التي يحتاجها ساكنته للاكتفاء داخل القصر ولو لمرحلة معينة وهذا ما وجدناه في قصر عين ماضي بالأغواط.

وعن تسمية القصور في المناطق الصحراوية فغالبا ما يُنسب إلى اسم الشَّخص أو الوليّ الصَّالح الذي كانت له مكانة علمية في وسط القبيلة التي كان يعيش فيها، وكان له الفضل في لمّ شملهم وتعليمهم، أو إلى القبيلة التي تسكن فيه، وقد يكتسب تسميَّته من الجهات الجغرافية التي تحدّد موقعه مثل القبلي أو الظَّهراني، كما يُنسب أحيانًا إلى لون مادة بناءه أو إلى المكان الذي يقع فيه أو قِدَمه أو حداثته، أو صغره أو كبره مثل: التحتاني، الفوقاني، القديم، الجديد، الكبير، الصغير ... إلخ.[4]

2. اختيار الموقع وشروط العمران:

إنّ من بين أهمّ خطوات العمران والتّعمير اختيار الموقع للاستقرار مع التفكير في الاستدامة وفي طول أمد البناء الذي تتحكّم وتؤثر فيه البيئة المحيطة، وهي الظروف التي تؤثّر في النمو والحياة، ومن المتعارف عليه أنّ هناك بيئتين الأولى هي البيئة الطبيعية التي هي من صنع الله سبحانه وتعالى، وتشمل كل ما يقع على سطح الأرض ويؤلف المنظر الطبيعي من جبال وأودية وصحاري وأنهار وبحيرات...، والبيئة الأخرى هي البيئة الحضرية التي هي من صنع الإنسان بما أقامه من منشآت في البيئة الطبيعية على هيئة مبان وعمارات وطرق ومساحات وحدائق وغير ذلك من الإنشاءات.[5]

وقد عني المسلمون بتشييد المدن وبناء الأمصار في كل إقليم أقاموا فيه أو بلد فتحوه، طابعينه بطابعهم المعماري الإسلامي، واهتمّوا بالتّدقيق في اختيار مواقعهم وتخطيطها، بل امتدّت عنايتهم إلى التّكوينات المعمارية بأشكالها الجمالية باعتبار أنّ الشكل يتبع الوظيفة،[6] وتبلورت رؤية واضحة في الفكر العمراني الإسلامي لدى علماء السياسة الشرعية، فتحدّثوا عن الضوابط الواجب مراعاتها عند اتخاذ المدن والحواضر وإنشائها، وفقا

لشروط دقيقة،[7] وقد أجمعت المصادر التاريخية والجغرافية أيضا على الشُّروط التي يجب أن تتوفَّر في اختيار موضع المدينة والقصر، وأهمّ ما اتَّفقت عليه المصادر:

- سعة المياه العذبة
- إمكانية الميرة
- إعتدال الهواء
- تحصين المدينة من الأعداء
- القرب من المرعى والاحتطاب.

ومن المهم أن نشير إلى أنّ الشريعة الإسلامية مثَّلت المظلَّة القانونية طوال العصر الإسلامي، ابتداء من عهد الرّسول ﷺ إلى نهاية العصر العثماني عندما حلَّت القوانين الوضعية محلّ الضَّوابط والأحكام الشّرعية، وكان ذلك بداية التَّغريب الذي ساد مظاهر حياة المجتمعات الإسلامية، ومن بينها العمارة، ومن ثمّ تبرز أهمّية اعتبار فقه العمارة الإسلامية في البناء المعرفي للآثاريين والمعماريين على حدّ سواء،[8] ومن أهمّ النقاط التي عالجها فقه العمران:

- **أحكام ضرر الكشف:** وتناولت أحكام الحيطان والكشف من المآذن والكُوات والنوافذ والأبواب والحوانيت.

- **أحكام ضرر الدخان:** وتناولت هذه الأحكام ضرر دخان الأفران والحمامات وما شابه ذلك مما قد يسبب ضررا للعامة أو ضررا للجيران.

- **أحكام ضرر الرائحة:** وتناول هذا الجانب أضرار رائحة المدابغ أو قنوات الصرف أو الاصطبلات وما شابهها.

- **أحكام ضرر الصوت:** وتناولت هذه الأحكام ضرر الفوضى الناتجة عن المطاحن أو الأسواق وما شابه ذلك.

وقد بُنيت أغلب القصور الصحراوية بالجزائر بالقرب من الوديان ومنابع المياه والعيون لأنّ توفّر الماء ضرورة للاستقرار والعيش والزراعة، والملاحظ من خلال تموقع هذه القصور أنها ركّزت على هذا الجانب فلا يكاد يخلو قصر من هذا الشرط.

كذلك هو الحال بالنسبة لموقع قصر عين ماضي بالأغواط، فقد بني على ربوة مرتفعة من أجل التأمين والدفاع وسهولة المراقبة من كل الاتجاهات، بالإضافة إلى وجود عين بالقرب من القصر والتي تقع بجبل المركب، كما أن الأراضي المحيطة بالقصر كلها أراضي تصلح للزراعة والدليل على ذلك هو البساتين التي تحيط بالقصر، أي أن قصر عين ماضي قد توفرت فيه كل شروط المدينة التي تساعد على العيش والاستقرار.

3. التخطيط العام للقصر:

يعكس التخطيط المادي للمدينة الإسلامية المحاور المختلفة التي قام عليها تخطيط المدينة وجوانبه المختلفة، ويبدأ التخطيط باختيار الموقع Situation ونعني بذلك موقع المدينة وعلاقتها بما يحيط بها، وأثّر في اختيار مواقع المدن الاسلامية عوامل مختلفة اختلفت

طبيعتها من مدينة إلى أخرى ولا سيما تلك العوامل المرتبطة بالنواحي الحربية أو السياسية.[9] هذه الأخيرة التي تؤثر بشكل كبير على تخطيط المدن والقصور وهي التي تفرض عليها نمطا خاصا من العمارة، وشروطا لا يمكن الاستغناء عنها.

والحديث عن العمارة الصحراوية (القصور) يفتح أمامنا كذلك مجموعة من أبواب البحث للإلمام بالدّراسة العلمية للحياة الاجتماعية لأهالي القصور وعلاقة الفرد بغيره وبمجتمعه، وبذلك المحيط العمراني التّقليدي، أي أنَّ ثقافة المجتمع تنعكس على الدُّور والبيوتات والشّوارع والأَزِقَّة داخل القصر، فالمجتمع الصّحراوي ذو التّنظيم الخاص نجد فيه التوزيع المحكم للأدوار والوظائف سواء كأفراد أو عائلات أو جماعات، فهو يخضع لمجموعة من القوانين والشّروط التي يجب على كل فرد أن يلتزمها. فالقصر بمثابة النافذة المفتوحة على حضارة الشعوب، ويعتبر كأداة للتعبير الفكري والثّقافي الحضاري كما يحدّد إطار النّمط الحياتي وكيفية تنميته في جميع النواحي.[10]

ويعتبر تصميم القصر عملًا هندسيًا مدروسًا ومنظّمًا وبه يُسَخِّر المصمّم كل الأماكن المادية الطّبيعية لصالحه، غير أنَّ الظّروف الطبيعية فرضت على إنسان المنطقة الصحراوية اتّخاذ مجموعة من المقاييس والشّروط في البناء تضمن له نوعًا من الرّاحة، فكان التّصميم العام للقصور الصّحراوية يخضع لعدة شروط نجدها متوفّرة في أغلب القصور إن لم نقل كلّها، فنجد القصور الصّحراوية الجزائرية على اختلاف الشّكل العام من قصر لآخر من حيث المساحة والشَّكل (المربع، الدائري، غير المنتظم) نجد أنَّ السُّور الخارجي والتّحصين الطَّبيعي عامل مشترك بينها وقربها من المنابع المائية، كما أنَّها تشترك أغلبها في البوابة الخارجية، إذ نجد بكل قصر بوَّابة رئيسيّة أو بوابتان أو ثلاث على الأكثر وربما تُستعمل جميعها في حالات السِّلم، وتستعمل الضّرورية منها في حالات الحرب أو الغارات وتوصد الأخرى.

ويتّخذ قصر عين ماضي شكلًا دائريا مركزه المسجد وهي سمة من سمات المدن الإسلامية القديمة، وتنطلق من ساحة المسجد الشّوارع الرّئيسية للقصر والتي تؤدّي إلى بوّاباته، وتتفرّع من هذه الشّوارع ممرّات ثانوية تؤدّي إلى المساكن، بالإضافة إلى وجود ساحات عامة من حيّ لحي داخل القصر يستغلها السكان لبعض أشغالهم، كما يدخل السّوق غالبا ضمن المحيط العمراني للقصر، وتحيط بالسور البساتين التي يستغلها أهل القصر لمعاشهم وزراعتهم ولمواشيهم، وجاء تخطيط قصر عين ماضي على النحو التالي:

1.3 المسجد:

المسجد مركز ترابط الجماعة الإسلامية وهيكلها المادي الملموس، فلا تكتمل الجماعة إلا بمسجد يربط بين أفرادها بعضهم ببعض، يتلاقون فيه للصلاة وتبادل الرأي، ويقصدونه للوقوف على أخبار جماعتهم، ويلتقون فيه مع رؤسائهم، أو يتجهون إليه لمجرد الاستمتاع بالقعود في ركن من أركانه، فالمسجد على

هذا ضرورة دينية وضرورة سياسية وضرورة اجتماعية أيضا بالنسبة لكل مسلم وبالنسبة لجماعة المسلمين.[11]

ويقع الجامع العتيق بالقرب من الباب الشرقي الرئيسي لقصر عين ماضي أي في الجهة الجنوبية الشرقية، يحدّه من الجهتين الشمالية والجنوبية شارعين رئيسيين، ومن الجهة الشرقية يحدّه ممر مسقف أي ساباط، وتتصل به المساكن من جهته الغربية.

2.3 الأسوار الخارجية:

السّور جدار عال ضخم يحيط بالبناء لحمايته،[12] والأسوار من أهمّ التّحصينات الحربية سواء على مستوى المدن أو المباني أو الحصون فهي خطّ الدفاع الأوّل، لأنّ المهاجمين إذا تمكّنوا من اقتحام أسوار المدينة والنّفاذ منها إلى الداخل فإنّ هذا يعني تمكّنهم من الاستيلاء على باقي المدينة،[13] ومن المعروف تاريخيا أن المسلمين كلّما فتحوا مدينة بادروا إلى تحصينها، كما اهتموا بترميم ما تضرر منها،[14]

ويظهر قصر عين ماضي من واجهته الخارجية التي توحي بالضّخامة في بناءه، يتميّز السّور بعرضه في أسفل الجدران ليتناقص كلّما زاد علوا لتزيد قدرة التّحمل وتوزيع الثّقل على أكبر قدر من مساحة الأساسات، تتخلّله مجموعة من أبراج المراقبة وعدد كبير من المزاغل التي أُعدّت خصّيصا للحراسة، ويتّصف بمظهر القوة والصّلابة من خلال الحجارة التي استعملت في بناءه. والصورة العامة للقصر تطالعك بفضائل وخصائص بيئة عمرانية تقليدية، تنظيم واضح ومقياس حركة إنساني وإدارة سلسة وتنسيق جميل.[15]

3.3 شبكات الشوارع:

لقد عالجت الضوابط الفقهية تخطيط شبكة الشوارع والطرق بمراكز العمران الإسلامية، وكان التّخطيط الشّجري الذي يتضمّن شارعا وطرق نافذة جانبية أقلّ اتّساعا، وتمثّل هذه النوعية الطرق العامة، كما توجد طرق فرعية أخرى غير نافذة لها دروب تمثل نوعية أخرى من الطرق، وهي الطّرق غير النافذة.[16]

ويعتبر موقع الجامع العتيق بقصر عين ماضي – الذي هو نواة القصر– المتحكم الرئيسي في توزيع شبكة الشوارع الرئيسية، والتي تتفرع عنها الشّوارع الثانوية والمسالك، ويمكن أن نقسمها على النحو التالي:

1.3.3 الشوارع الرئيسية:

وهي ما أطلق عليها الفقهاء "الطريق السّابلة"، "طريق المسلمين"، "الطريق العامة" أو الطريق الرئيسية"[17] وتُسمى محلّيا الحاف، وتختلف القصور الصحراوية من حيث عدد الشّوارع الرئيسية من قصر إلى قصر وتتميّز بانكسارها وقِصر امتدادها، وتعد الشوارع الرئيسية من العناصر الأساسية للقصر ووسيلة اتصال بين داخله وخارجه، فهي تقوم بربطه مع المناطق المجاورة له كالبساتين والمقبرة، ويتم عبرها أيضا الإتّصال بالوحدات الرئيسية للقصر كالمداخل والرحبات والسوق ومركز القصر الذي يشغله الجامع العتيق تتقدمه ساحة

فسيحة لامتصاص كثافة المصلين،[18] وكذلك نلاحظ في الكثير من المواقع أنها تخلو من الزوايا الحادة عند انكسارها وربما يرجع ذلك إلى تفادي الأذى حسب الروايات الشفوية.

2.3.3 الشوارع الثانوية (الأزقة):

وهي مسالك أقلّ من الشوارع الرئيسية عرضا وتنطلق منها أو من السّاحات العامة وتتوغّل داخل الأحياء، وهناك أزقّة مغطاة وأخرى مكشوفة وتكون التغطية إما بسقف خاص بها وإما عن طريق استغلال الفضاء بإنشاء المباني عليها كطابق علوي[19]، وتعتبر نصف عمومية واتّساعها لا يزيد عن متر ونصف مما يسمح بمرور حمارين محملين في آن واحد، كما أن لتغطية الزّقاق وظيفة اجتماعية وهي مرور النسوة من بيت لآخر، كما أنّه كان يستخدم قديما للنوم والرّاحة من طرف الرجال أيام الحر الشديد ومن الأعلى يتقاسم سطحه المسكنين المتجاورين اللذان يحصران هذا الحيز، والزقاق شبيهة شكلا وأداء بالسّاباطات الموجودة في القرى المغربية القديمة...، إذ لها وظيفة مناخية واجتماعية وبنائية تلائم أهل المنطقة،[20] ومن المميّزات الوظيفية لهذا التخطيط من الشوارع أن ضيق الشوارع والتواءها لتقليل يساهم في تقليل أشعة الشمس والحرارة بالإضافة إلى كسر التيارات الهوائية.

4.3 الساحات العامة:

تُعتبر السّاحات العامة خاصّية مميّزة وضرورية في القصور الصحراوية، وهي نقطة التقاء الشوارع، وعادة ما تتعدّد في القصر الواحد حسب تخطيط السّكنات وحسب توزيع الشّوارع وهي المتنفّس للسّكان، إذ تمارس فيها النّشاطات العامة كالاحتفالات أو تفريغ الحمولة لتوزيعها على السكان أو الدّكاكين، وتستعمل أحيانا لعرض بعض السّلع خاصة الموسمية منها.

لكن البيئة الصحراوية ومناخها الحار والمعروف أيضا بالزوابع الرملية يؤثّر على الفراغات ويحتم على تضييقها، إذ لا يمكن استغلالها إذا بقيت مكشوفة خاصة في فصل الصيف إلا لساعات قليلة من اليوم، لذا نجدها ضيقة بعض الشيء مقارنة بالمساحات العامة للقصور الصحراوية، وهذا ليس على الإطلاق بل نجد أحيانا بعض الساحات المتسعة بعض الشيء وربما كانت تضلل أثناء استغلالها بالخيام.

وعن قصر عين ماضي فهو يحتوي على ثلاث ساحات عامة وتُسمَّى محليا "الرَّحبات" أوسعها الموجودة قرب الباب الكبير وتليها رحبة أخرى قرب بيت الشيخ التجاني، ونجد الرحبة الثالثة عند باب السّاقية، وقد فرضت الحاجة الاجتماعية لسكان القصر اتخاذ هذه الرّحبات كما أشرنا سابقا لضرورتها، ولاحظنا أنّ هذه الرّحبات لا تفتح في اتجاهها الأبواب الخاصة بالبيوت ولا النوافذ وذلك لتفادي الهرج والفوضى عدا بعض أبواب الحُجر والتي نرجح أنها كانت تستغل كدكاكين .

5.3 البيوت:

اتَّخذ الإنسان منذ وجوده من المغارات والكهوف مأوى له يلتجئ إليه، ثم اتَّخذ لنفسه مساكن من

الخشب والحجارة، و بدأت تتطوَّر مساكنه مع مرور الزمن، قال ابن خلدون: "إن الإنسان لما جُبِل عليه من الفكر في عواقب أحواله لابدّ أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى في الحرّ والبرد، كاتّخاذ البيوت المكتنفة لسقف والحيطان من سائر جهاتها".

وبُنيت أحياء وبيوت قصر عين ماضي بشكل التّضامن والتَّراص إلى بعضها البعض مشكِّلة كتلة عمرانية واحدة تشترك بيوتها في الجدران الخارجية، الهدف من وراء ذلك التصميم المتراص الحصول على أقل حدّ من أشعة الشمس من الناحية الوظيفية، كما أنّ في مضمونها دلالة على علاقة التآزر التي تربط أهالي القصر بعضهم ببعض، وفي هذا يتجسَّد الحديث النَّبوي الشّريف: "المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضًا".

وجاءت الواجهات الخارجية لبيوت قصر عين ماضي صمَّاء بسيطة بُنيت من الحجارة غير المهذَّبة وتخلو من أيّ فتحات أو نوافذ تطلُّ على الشارع، بل وُجِّهَت نوافذ المساكن إلى الدّاخل أي إلى صحن المسكن المكشوف، ونستثني هنا فتحات ما يُسمَّى بالميازيب المعَدَّة لتصريف مياه الأمطار، ونرجع هذا التَّكوين المعماري إلى التَّعاليم الدّينية التي من بينها الحياء والحُرمة لأسرار البيت والسُّترة الخاصة به، على غرار ما فعلته المجتمعات الإسلامية وهي ظاهرة أضحت من أهمّ مميّزات العمارة الإسلامية.[21]

ولم يقتصر أثر الدّين على خارج المساكن بل نجد هذا التَّأثير جليًا عند وُلُوجنا إلى البيت في أوّل ملاحظة وهي المدخل المنكسر أي أنَّه يُشكِّل حرف (L) وهذا في حالة فتح الباب فإنه لا يكشف صحن البيت أو حجراته وربما سمحت هذه الميزة بترك الباب مفتوحا عند الحاجة ربما من أجل التهوية مثلا، واستعملت السّقيفة أيضا للحاجة اليومية لها كاستقبال الضيوف قبل مرورهم الى داخل البيت أو في بعض الحاجات والأعمال اليومية، قال تعالى: " ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما".[22]

بالإضافة إلى الكنيف أو المرحاض فعادة ما يوضع في أماكن معزولة عن جناح المعيشة ويكون محجوبا عن الأنظار ليتمكّن الإنسان من قضاء حاجته دون حرج، بالإضافة إلى تفادي الرائحة الكريهة والنجاسة.

وقد اتّبعت كل دور ومساكن قصر عين ماضي هذا النّمط من البناء وإن دلّ فإنّما يدلّ على أنّ التّعاليم الدينية والأعراف هي التي حدّدت هذا النمط وإن اختلف في بعض جزئيّاته بمباني القصر ربما لاختلاف

المساحة أو لحاجة ساكنيه، لكن إن وجد اختلاف فلا يخلّ بالمنظومة العامة للبناء المتّبعة في إنشاء القصر.

أمّا الأبواب فلاحظنا أنَّها فُتحت غالبًا في الشّوارع الثَّانوية أو الفرعية أي الشَّوارع التي تقلُّ فيها الحركية، ونلاحظ أنَّها فُتحت "متناكبة" أي أنَّها غير متقابلة لتفادي الكشف والإحراج للجيران المتقابلين، بالإضافة إلى عدم الإزعاج للغير وقت إدخال السّلع أو الحاجيات للبيوت.

ومن خلال كل ما سبق، نستنتج أنّ المعماري بقصر عين ماضي قد وفَّق بين العناصر المهمة التالية:

– **المجال الطبيعي**: وهو البيئة الجغرافية التي يستغلها الانسان لإنشاء مبانيه، وقد راعى فيها الكثير من الشروط لاستغلالها، وأهم شروطها: قرب الموارد المائية منها، وأن تكون على قدر من التّحصين الطبيعي، وطيب كلئها وهوائها.

– **النظام الفكري**: وهو ما يمكن للمعماري والمهندس أن يبدعه في تخطيط مبانيه وشوارع المدينة وذلك بتقيده بما يمليه الدين والعرف السائد في المنطقة.

– **المحيط العمراني**: وهو ما ينتجه المعماري بأفكاره على المحيط الطبيعي أو الرقعة الجغرافية التي اختارها، وهو كل جزئيّات العمارة بكتلها العمرانية وعناصرها المعمارية.

4. الوظيفية في عمارة قصر عين ماضي:

1.4 الوظيفية في التصميم:

هناك من يرى في المشهد الحضري لهذه المدن (القصور الصحراوية) إلّا مشهدا مضطربا فوضويا غير منظّم تتداخل فيه كتل سكنية قليلة التّهوية، بسبب نوافذ دورها المطلّة على الدّاخل، فأصحاب هذه النّزعة لم يروا في المدينة الإسلامية غير السلبيات، ولم يحاولوا فهم المجتمع وقوانينه وتفكيك العوامل المتداخلة التي أعطت للمدينة مظهرها العام، سواء كانت سياسية أو بيئية أو جغرافية أو اجتماعية أو دينية ...الخ، وبدونها مجتمعة لا يمكن فهم المدينة وعمارتها.[23]

لكنّ الفكر الإسلامي النّاضج أدرك أسباب العمارة وازدهارها وأسباب انحلالها وضعفها، في إطار يربط ببراعة بين "الشّكل المادّي" و"الهيئة الاجتماعية" ربطا عضويا يكشف عن نضج في الفكر وارتقاء في المستوى الحضاري الذي أفرزته الحضارة الإسلامية ليرسم المبادئ العامّة لسياسة تكثير العمارة المنوط بها الحكّام باعتبار تكثيرها من أركان الملك.[24]

وعليه نستخلص التّبادل القائم والتّكامل بين النّواحي الفيزيقية والاجتماعية في المدينة، فلا يمكن أن تقوم علاقات اجتماعية دون توفّر المجال الذي تنمو عليه هذه العلاقات، كما أنّأنماط العمران وشكل النّسيج العمراني هي انعكاس لأفكار وقيم ومعتقدات السّكان، فالمدينة في أبسط صورها هي انعكاس للعلاقات الإجتماعية على المجال.[25]

وعمارة القصور الصّحراوية قائمة على تقاليد حضارية ناتجة عن تفاعل عدّة عوامل مستوحاة من

الدّين الإسلامي الحنيف السّاعي إلى تطبيق المقاصد الشّرعية وهي حفظ النّفس والمال والعرض، لذلك فإنّ القصور الصحراوية قد بُنيت بشكل يُحقّق هاته الأغراض.[26] أي أن التفكير في التصميم كان وظيفيا محضا.

إنَّ الجهات الكبرى المختلفة للهندسة المعمارية الجزائرية تجمع بينها – مع قوة شخصيّتها – ميزة رئيسية تتمثّل في الحشمة والاعتدال وصفاء الخطوط والمستوى الإنساني، وفي ذلك التقشّف الإسلامي الذي يجعلها تفضّل دائما الدقّة و"الدّخلانية" على اللّمعان.[27]

تشترك أغلب القصور الصّحراوية في نظام الحكم السّائد بداخلها أو بما جاورها سواء في فترات تأسيسها أو في فترات حديثة عن ذلك، إذ يسود النظام المعتمد على القبلية وكلمة الشيوخ فيها، إضافة إلى مجلس الجماعة، الذي يشكل نظاما وظيفيا متكاملا داخل القصر، سواء كانت بين ساكنة القصر أو عمارة القصر بحد ذاته من باب الانتفاع الوظيفي الذي حددته الحكمة الإلهية.[28]

وبقصر عين ماضي الذي تظهر فيه تلك الصورة المعمارية والفنية التي تنم عن فكر متشبع بالثقافة نجد الوظيفية في التصميم في العناصر التالية:

- استعمال السور الخارجي للقصر من أجل الحماية والأمن لساكنة القصر وأموالهم، مع تدعيم القصر بأبراج للمراقبة وممشى في أعلى السور يساعد على الحراسة من كل جهات القصر، كما زود السور بمجموعة كبيرة من المزاغل من أجل النظر منها والرماية.
- توسط المسجد للقصر كونه مركز السلطة وملتقى الجماعة.
- استعمال شبكة منتظمة من الشوارع الرئيسية والثانوية والممرات تنظم حركة السير داخل القصر وتوصل إلى كل الجهات منه.
- استعمال الانكسارات في الشوارع لتكسير التيارات الهوائية والتقليل منها، كما سقفت بعض الممرات من أجل التقليل من الحرارة واستغلال الأماكن التي يتوفر بها الظل.
- استغلال الفراغات قدر الإمكان من خلال تكوين الساحات العامة التي ينتفع بها كل ساكنة القصر للتجمعات أو كأسواق للحاجات اليومية.
- تميزت البيوت بقصر عين ماضي بالدّخلانية حفاظا على حرمة وأسرار البيوت

2.4 الوظيفية في مواد البناء:

يمكننا أن نحدد الوظيفية في مواد البناء في العناصر التالية:

- الاستفادة من المادة الموجودة والمتوفرة في البيئة المحيطة وتوظيفها توظيفا نفعيا في كل مراحل البناء.
- استعمال الحجارة في الأساسات لتكون قاعدة صلبة للبناء وتطيل أمد تحمل الثقل كما أنها تحافظ على أجزاء البناء من الرطوبة.
- استعمال الحجارة في السور الخارجي لصلابتها ومقاومتها خاصة في حالات الحرب.

- الاستفادة من المواد الخشبية كجذوع النخيل والأشجار واستغلال أغلب ما فيها في أعمال البناء كالسعف والكرناف.

- استعمال الجير في طلاء الجدران والسطوح للتقليل من درجة الحرارة.

- استعمال الطين والملاط في أغلب العمائر الصحراوية لسهولة تحضيره.

- توظيف المادة البنائية حسب المكان والاحتياج، إذ نجد كثيرا استعمال الطوب في العمارة المدنية والحجارة في العمارة الدفاعية.

2.4 الوظيفية في تقنيات البناء:

كان لتقنيات البناء الدور البارز في إطالة عمر البناء ووقوفه أمام عوامل التلف سواء البشرية أو الطبيعية، وكان المعماري الصحراوي يستفيد من التجارب التي يمر بها ليوفر على نفسه الجهد والوقت والمادة، وأهم الملاحظات (الوظيفية) حول تقنيات البناء بقصر عين ماضي نذكر:

- التقشف في البناء

- استغلال الفراغات سواء في البيت أو في عمارة القصر

- استعمال الطرق المناسبة في البناء كطريقة السنبلة في البناء بالحجارة لاستغلال الحجارة الصغيرة والمتوسطة، بالإضافة الى أن هذه الطريقة تساعد على تسرب المياه خارج الجدران دون أنم تضر به، وكذلك طريقة المداميك التي تساعد في عملية البناء بالطوب والآجر.

- استعمال العوارض الخشبية في الجدران بين مسافات وارتفاعات مختلفة والتي من شأنها امتصاص الرطوبة من الجدران، كما أنها تساعد على تخفيف وتوزيع الثقل.

- تقنية بناء السلالم على قواعد حجرية تزداد سمكا على امتداد ارتفاع السلم.

- استعمال طريقة البناء الهرمي في التسقيف بالحجارة في كثير من المواضع بالقصور الصحراوية.

- استعمال طرق التقبيب بأنواعه المختلفة والتي من شأنها توزيع الحرارة أو المياه لتحافظ نسبيا على جو معتدل داخل المبنى.

- حرمة الفضاء العمراني في القصر من خلال فرض عدم الجلوس والتجمع خاصة في الشوارع الرئيسية

- إبعاد مصادر الفوضى والرائحة عن البيوت السكنية ووضعها في أبعد مكان من القصر أو خارجه إذا دعت لذلك الضرورة

- عدم فتح النوافذ إلى جهة الشارع، بل توجه إلى صحن المسكن حفاظا على حرمة البيوت وأسرارها

- استعمال المدخل المنكسر ليحجب النظر إلى داخل البيت في حالة فتح الباب

- تناكب الأبواب لتفادي الإحراج بين الجيران.

الخاتمة:

وختاما بعد هذا العرض البسيط للعمران الصحراوي بقصر عين ماضي، يمكننا أن نستنتج أنّ المعماري بهذه المناطق عرف كيف يتكيّف مع الظروف الطبيعية الصعبة، حيث طوّع المادة البنائية والتصميم حسب ما

يحتاجه لمقاومة تلك الظروف من جهة، ولما يمليه الدين والعرف من جهة أخرى، فهو قد وُفّق إلى حدّ كبير إلى الوصول إلى إنتاج نمط عمارة محلية بكل المقاييس صالحة للعيش في كل الأحوال، توفّر كل ما هو ضروري للاستقرار.

وعلينا كمهتمين بهذا الإرث الحضاري أن نتوغّل أكثر في البحث في مجالات العمران الصحراوي التقليدي، ومحاولة النهوض بهذا القطاع البعيد عن الأضواء، لأنه يمثل بحق بديلا اقتصاديا إذا ما استُغلّ استغلالا علميا مبنيا على رؤية مضبوطة لتفعيل الجانب السياحي بهذه القصور من خلال ترميمها وإعادة الحياة إليها.

المراجع المعتمدة في البحث

1) القرآن الكريم

2) ابن منظور، لسان العرب، نسخة علي المنيري، دار احياء التراث العربي، بيروت،ط1،1999، ج11.

3) مُحَمَّد جاسم الخليفي، العمارة التقليدية في قطر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، إدارة المتاحف والآثار ، قطر، ط3، 2003.

4) خالد مُحَمَّد مصطفى عزب، تخطيط وعمارة المدن الاسلامية،وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط1،1997.

5) حسين مؤنس، المساجد، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،1981 ، الكويت.

6) عاصم مُحَمَّد رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي،مصر، ط1، 2000.

7) يحيى وزيري، العمران والبنيان في منظور الإسلام، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط1، 2008.

8) حسين مؤنس، تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، طبعة المدني، الدار المصرية اللبنانية، مصر، 1993.

9) ساندرز وليام، نشأة وتطور التصميم العمراني، الجمعية السعودية لعلوم العمران،المملكة العربية السعودية، 2006.

10) مُحَمَّد عبد الستار عثمان، المدينة الاسلامية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1988

11) ثروة عكاشة، القيم الجمالية في العمارة الاسلامية، دار الشروق، بيروت ، 1984.

12) خالد عزب، السياسة الشرعية وفقه العمارة، كراسات علمية، مكتبة الاسكندرية، 2012

13) ليلى علي إبراهيم، الفن المعماري الجزائري، سلسلة الفن والثقافة، مكتبة الاسكندرية، مصر، 2008،

الرسائل الجامعية:

1) حملاوي علي، قصور منطقة جبال عمور، السفح الجنوبي، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2001

2) هبول حنان، إعادة تأهيل القصور الصحراوية قصر عين ماضي نموذجا، رسالة ماجيستر، معهد الاثار، 2011/2010

المجلّات والمؤتمرات:

1) جابر مليكة، حماني فضيلة، تنمية العمران الصحراوي وأثره على الخصوصية الثقافية، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، عدد خاص بالملتقى الدولي تحولات المدينة الصحراوية، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، مارس 2015

2) مُحَمَّد عبد الستار عثمان، فقه العمارة الاسلامية بين البحث والتعليم، المؤتمر الدولي الأول للتراث العمراني في الدول الاسلامية، الهيئة العامة للسياحة والاثار، 2010.

3) يمينة بن صغير، القصور الصحراوية بالجزائر صورة للإبداع الهندسي، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، ع15، 2011

4) ثياقة الصديق، نمط العمارة القصورية في ظل مراحل وجود الاستيطان البشري في إقليم توات، مجلة الحقيقة، جامعة أدرار، ع25

5) لبتر قادة، قصر موغل بولاية بشار، مقاربة تاريخية وأثرية، مجلة مخبر التراث الأثري، ع5، ديسمبر، 2016.

6) بيدي مُحَمَّد، الخصائص العامة لقصور الجنوب الغربي الجزائري، مجلة دراسات، جامعة بشار، جوان، 2016

الهوامش:

[1] ابن منظور، لسان العرب، دار احياء التراث العربي، لبنان، ط1،ج11، ص 55،

[2] سورة الرحمان، الآية72.

[3] حملاوي علي، قصور منطقة جبال عمور، السفح الجنوبي، رسالة دكتوراه، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 2001، ص 188

[4] بيدي مُحَمَّد، الخصائص العامة لقصور الجنوب الغربي الجزائري، مجلة دراسات، جامعة بشار، الجزائر، عدد1، مجلد5، جوان، 2016، ص 269

[5] مُحَمَّد جاسم الخليفي، العمارة التقليدية في قطر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، إدارة المتاحف والآثار، قطر، ط3، 2003، ص 35-37

[6] ثياقة الصديق، نمط العمارة القصورية في ظل مراحل وجود الاستيطان البشري في إقليم توات، مجلة الحقيقة، جامعة أدرار، عدد3، مجلد 12، جوان، 2017، ص 388

[7] خالد مُحَمَّد مصطفى عزب، تخطيط وعمارة المدن الاسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط1، 1997، ص 70

[8] مُحَمَّد عبد الستار عثمان، فقه العمارة الاسلامية بين البحث والتعليم، المؤتمر الدولي الأول للتراث العمراني في الدول الإسلامية، الهيئة العامة للسياحة والآثار، السعودية، 23-28-2010، ص06

[9] مُحَمَّد عبد الستار عثمان، المدينة الاسلامية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،1988، ص 86

[10] مريم لمام، العمارة الصحراوية وأنماطها الاجتماعية دراسة سوسيوانتربولوجية، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، ع15، 2011، ص 323

[11] حسين مؤنس، المساجد، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1981، ص 30

[12] عاصم محمّد رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2000، مصر، ص 153

[13] يحيى وزيري، العمران والبنيان في منظور الإسلام، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت،ط1، 2008، ص 51

[14] حسين مؤنس، تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، الدار المصرية اللبنانية، مصر، 1993، ص 583

[15] ساندرز وليام، نشأة وتطور التصميم العمراني، الجمعية السعودية لعلوم العمران، المملكة العربية السعودية، 2006، ص 213

[16] محمّد عبد الستار عثمان، فقه العمارة الاسلامية، م ن، ص 06

[17] عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، م ن، ص 179

[18] هبول حنان، إعادة تأهيل القصور الصحراوية قصر عين ماضي نموذجا، رسالة ماجيستر، معهد الاثار، جامعة الجزائر، 2011/2010، ص 48

[19] قبابلة مبارك، تطور مواد وأساليب البناء في العمارة الصحراوية، رسالة ماجيستر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمّد خيضر، بسكرة، الجزائر2010/2009، ص 66

[20] ثياقة الصديق، فاتحي عبد النبي، النمط المعماري للمدينة الصحراوية ووظائفه الإجتماعية، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، عدد22، مجلد7، ص 116

[21] ثروة عكاشة، القيم الجمالية في العمارة الاسلامية، دار الشروق، القاهرة، 1984، ط1، 1994، ص61

[22] سورة الأحزاب، الآية 53

[23] خالد عزب، السياسة الشرعية وفقه العمارة، كراسات علمية، مكتبة الاسكندرية، 2012، ص16

[24] محمّد عبد الستار عثمان، المدينة الاسلامية، م س، ص 26

[25] جابر مليكة، حماني فضيلة، تنمية العمران الصحراوي وأثره على الخصوصية الثقافية، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، عدد خاص بالملتقى الدولي تحولات المدينة الصحراوية، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، مارس 2015، ص 288

[26] حملاوي علي، القصر بالجنوب الجزائري مفهومه ومكوناته، مجلة معهد الآثار، ع10، 36

[27] ليلى علي إبراهيم، الفن المعماري الجزائري، سلسلة الفن والثقافة، مكتبة الاسكندرية، جمهورية مصر العربية، 2008، ص14

[28] لبتر قادة، قصر موغل بولاية بشار، مقاربة تاريخية وأثرية، مجلة مخبر التراث الأثري ع5، ديسمبر، 2016، ص 150.